

الأنساق الثقافية في الرواية الجزائرية: تجاوز المهيمن وإنتاج البديل. قراءة في رواية مرايا الخوف لـ "حميد عبد القادر"

.Cultural Patterns in the Algerian Novel: Transcending the Hegemonic and Producing an Alternative.

A Reading of Hamid Abdelkader's Novel Mirrors of Fear.

1 بن عودة دولات سروري*

جامعة لونيبي علي - البليدة 2، (الجزائر)، Serouri48@hotmail.fr

تاريخ الارسال 2025-07-25 تاريخ القبول 2025-07-13 تاريخ النشر 2025-09-16

ملخص:

مع مطلع الألفية الجديدة، عبّر الروائي الجزائري عن هوسه بتجاوز الأنساق الثقافية المهيمنة، وخاصة نسق الفحولة الذي يُعيد إنتاج نفسه من خلال سلوكيات كرسّت ثقافة العنف التي أنتجت العُشيرة السوداء، هذا ما استلزم إعادة نظرٍ لتخليص التفكير الجمعي من أغلال ما لم يعد صالحاً لحاضر الأمة. كما عبّر الروائي عن موقفه الرافض لتحكّم نسق الفحولة في العلاقات داخل مجتمع ذكوري يُمجّد فيه الرجال العُنف، وتشتّبه النساء، ويُعاني فيه المثقف الذي يُرفض الانسياق وراء الدعوات الممجّدة للقوة والترهيب، هذا الأخير الذي وجد نفسه مضطراً إلى خوض معركة وجودية يسعى فيها إلى استعادة مكانته في المركز، وإزاحة الفحل العنيف إلى الهامش. لقد أسس الروائي من خلال إدارته لذلك الصراع الوجودي لنسقٍ بديلٍ لذلك الذي دعا إلى تجاوزه، وهو نسق يتشكّل من خلال ما ينتج عن مُزاولة فعل القراءة من معرفة وقُدرة على التمييز بين الحق والباطل، يحمل لواءه المثقف الحقيقي الذي ينبذ العنف، ويؤمن بأحقية الآخر في الاختلاف.

الكلمات المفتاحية: النسق - الفحولة - المركز - المثقف - الهامش.

Abstract:

At the dawn of the new millennium, the Algerian novelist expressed his obsession with transcending dominant cultural paradigms, particularly the paradigm of masculinity, which reproduces itself through behaviors that perpetuate the culture of violence that produced the Black Decade. This necessitated a reconsideration to free collective thinking from the shackles of what is no longer relevant to the nation's present.

The novelist also expressed his rejection of the dominance of the masculinity system in relationships within a male-dominated society in which men glorify violence, women desire

* بن عودة دولات سروري

it, and in which the intellectual who refuses to be led by calls glorifying force and intimidation suffers.

The latter finds himself forced to fight an existential battle in which he seeks to regain his position in the center and push the violent stallion to the margins.

Through his management of this existential conflict, the novelist established an alternative system to the one he called for to overcome. This system is formed through the knowledge and ability to distinguish between right and wrong that results from the act of reading. Its banner is carried by the true intellectual who rejects violence and believes in the right of the other to differ.

Keywords: System - Masculinity - Center - Intellectual - Margin.

1. مقدمة:

فرض النقد الثقافي وجوده في الأدب والنقد، بعد أن عدّه البعض منهجاً قادراً على مُزاحمة النقد الجمالي في الساحة النقدية، لأنّ « الذات الباحثة لم تعد تنفع بالانشغال بشاعرية النص، وتقنيات تأليفه التحويلية والبلاغية، بل لمنظومات الأفكار والقيم والسلوكيات التي ينطوي عليها، ويكرسها لدى المتلقي المفترض. »¹ وصار يُنظر إلى النص « بوصفه حادثة ثقافية، وليس مجتلى أدبياً فحسب. »² فالنص من منظور النقد الثقافي علامةٌ تكشف دلالته بالنظر إلى السياق الثقافي، لأنّه بمثابة « وثيقة تعكس الإيديولوجي والسياسة السائدة، وتُتخذ نقطة انطلاق إعادة تصوّر تلك القيم وإعادة بنائها في ظلّ صراع طبقيّ ثقافي. »³ ما يجعل المهمة الأساسية للنقد الثقافي، نقد الأنساق المضمرّة التي تتخفى خلف الجمالي في النص الأدبي، ونقد المؤسسة المنتجة للثقافة، التي تصنع قيماً ثقافية هزيلة، هذا ما أكّده " عبد الله الغدامي " حينما قال: « أو ليست الثقافة الشعرية باعتمادها لنموذج الفحل، هي التي تُؤسّس وتُنمذج صورة الطاغية في الذهنية الثقافية، مُتوسّلة بالجمالي لتمرير نماذجها. »⁴

والحقيقة أنّ نسق الفحولة - وما يدور في فلكه من أنساق - ظلّ مُستحوذاً على الأعمال الأدبية العربية منذ أيام العرب ومعلقاتها في الجاهلية، إلى يومنا هذا، سواءً أكانت تلك الأعمال شعراً أم نثراً. ولعلّ الدارس المتخصّص المتنبّع للمنجز الروائي الجزائري يلحظ أنّ هذا النسق فرض هيمنته داخل نسيج السرد، لأنّه يُعيد إنتاج نفسه من خلال أنساق أنثروبولوجية تُحدّد نمط حياة الفرد الجزائري، المشدود إلى بنيات عميقة تستلزم إعادة النظر فيها، لتخليص التفكير الجمعي من أغلال ما لم يُعدّ صالحاً لحاضر الأمة، وتمكينها من تجاوز كل ما يُعيق انبعائها.

ومع مطلع الألفية الجديدة، عبّر الروائي الجزائري عن هوسه بتجاوز الأنساق الثقافية المهيمنة، خصوصاً بعد اعتبار بعضها مسؤولة عن إدخال البلاد في دوامة عُنفٍ دائم، عمّر أزيد من عقْدٍ من الزمن. ولم يكتفِ الروائي

بمحاولة هدم تلك الأنساق، بل سعى إلى إنتاج أخرى بديلة رآها كفيلاً بتمكين الذات من تحقيق وثبة سيكولوجية تكون منطلقاً لانبعاث الجماعة. وليّان ذلك اختزنّا رواية (مرايا الخوف)، لـ "حميد عبد القادر"، التي سعى الروائي فيها إلى الحفر في ثقافة المجتمع الجزائري وتركيبته السيكولوجية، مبرزاً هيمنة نسق الفحولة على العلاقات بين الأفراد، ثمّ دعا إلى تجاوزه بعدما شرّحه وبيّن عيوبه، معتبراً إيّاه مسؤولاً عن إنتاج عُشريّة دموية، كما قدّم نسقاً بديلاً له.

2. نَقْدُ نَسَقِ الْفُحُولَةِ فِي رِوَايَةِ "مَرَايَا الْخَوْفِ" :

عبّر بطل الرواية "زينو" عن اندهاشه الشديد من انتشار منطق القوّة بين النّاس، وكيف أنّ المجتمع بأطرافه يحترم القويّ ويذعن له، بينما يُعاني المثقّف الحاملُ للأفكار في بيئة لا تعترف إلّا بالقويّ، حتى إن كان جاهلاً، أمياً: «القوّة في هذا البلد هي التي تجعل الإنسان يفتكّ احترام الآخرين، بما يمتلك من قدرة على الترهيب، لم أكن حينها واعياً بهذا المنطق المدمر المنتشر بين النّاس، الجميع يخضع للأقوى، وليس لمن يملك الأفكار.»⁵ ومنطق الخضوع للأقوى ليس سوى مظهراً من مظاهر نسق الفحولة الموجه لتفكير العربيّ منذ القدم، فهو الذي يوجّه علاقة الرّجل بالمرأة، ونظرة المجتمع إلى الرّجل غير العنيف، والمسؤول عن إنتاج التطرّف الدينيّ وما يُصاحبه من استبداد سياسيّ.

1.2 . علاقة الرّجل بالمرأة : (سادية الفحل) :

استطاع الروائيّ أن يُعبّر عن تجلّي نسق الفحولة في العلاقات التي تجمع الرّجل بالمرأة، سواء داخل أسوار الأسرة أم خارجها، من خلال ذكر موقفين: الأول ورد على لسان "حمو" - وهو شخصيّة ثانويّة، كان صديقاً للبطل "زينو" - فحينما اشتكى له هذا الأخير من عجزه عن كسب إعجاب محبوبته "نازلي"، التي كانت يتمناها زوجةً له، نصّحه بأن لا يكشف عن حبه للمرأة، عليه أن يكون عنيقاً وقاسياً معها، غير أنّ "زينو" لم يتقبّل تلك النصائح من صديقه الذي كان يكبره بعشر سنوات، واعتبر كلامه في قمة التّوحّش والسّاديّة، ليُرَدّد "حمو" بقوله: أنا أحدثك من منطلق التجربة، عرفت نساءً كثيرات، كلّهنّ لا يعشقن إلّا الرّجل الذي يتعامل معهنّ كبدايّ، بصلابة وقسوة وتوحّش.»⁶

فهذا الصّديق يوجّه البطل إلى ضرورة استعراض فحولته أمام محبوبته، من خلال العنف اللفظيّ والمعنويّ وغير ذلك من التّصرّفات السّادية، وأنّ ذلك شرط لنجاح العلاقة بين الرّجل والمرأة، لأنّها تفضّل الارتباط بـ (الفحل / العنيف).

وهو ما أكّدته "نازلي" لـ "زينو"، في لقاء جمعتهما بعد سنواتٍ من انفصالها عنه، وزواجه من رجل آخر، حيث عبّرت من خلال وجهة نظرها - كامرأة - عن معنى الرّجولة الحقيقيّة، والتي لا تتحقّق إلّا بممارسة القوّة والعنف، وأنّ شعورها بأنوثتها مُرتبط بالأمان الذي لا يتحقّق إلّا بوجود الفحل (العنيف / القاسي)، يظهر ذلك

في قولها: « قبل الزواج أدركت أنّ خطيبي رجلٌ عنيفٌ، يختلفُ عنك أنت الرجل الحساس والمتفهم إلى حدّ السّداجة، سَعدتُ إلى حدّ النّشوة بعنف زوجي، كنتُ أتلذذُ بقسوته، كان يضربني (..) فكنتُ أزداد حُبًا له، وأشعر بالأمان، لأنّني عثرتُ على رجلٍ حقيقيّ، رجلٍ قويّ وعنيف، فأحسست بالاطمئنان الذي لم أكن أحسّ به معك.»⁷

وعليه: فإنّ نسق الفحولة كان حجر الزاوية في العلاقة بين الرجل والمرأة، بحيث لا يساهم الرجل وحده في ترسيخه، بل تفعل المرأة ذلك أيضًا بشكلٍ لا واعٍ، « إنّه اشتراك الضحية والجلاد في تبني التّصورات والمقولات التّصنيفيّة ذاتها، ممّا يسمح بالحديث عن إعادة إنتاج الهيمنة وتأييدها.»⁸

2.2. المثقف اللا فحل :

إذا كان مفهوم الرجولة قد ارتبط بـ (سادية وعنف الفحل) عند "حمو" صديق "البطل"، وعند محبوبته "نازلي" أيضًا - وغيرهم كثير - ، فإنّ منهم من اعتبر كلّ رقة وبشاشة في الرجل قلة فحولة، وأنزلوا كلّ رقيق حسّاس منزلة المخصي⁹، يتجلّى ذلك في عديد المقاطع الحوارية، منها قول "حمو" لصديقه "زينو" : « الرقة في المرأة، وليس في الرجل.»¹⁰

إنّ اعتبار الرقة صفة أنثويّة خالصة، تعني إخراج كلّ رجل حسّاس من دائرة الفحول، إنّه مخصي في نظر المجتمع الذكوريّ، هذا ما دفع البطل في طفولته إلى تأويل وصفه بالولد الحساس، على أنّه تهكّم مُستترّ يشي بضعف في الشخصية، أو بتعبير المجتمع الذكوريّ: انعدام فحولة. يسرّد "زينو" تفاصيل الحادثة التي دارت وقائعها في محلّ "سي الشريف" الحلاق، هذا الأخير كان يُسلّي زبائنه بالحديث عن واقعة (الزرق la bleuite)¹¹ التي دارت خلال الثورة التحريرية، حيث كان شاهداً على تفاصيلها، وأقدم هو شخصياً على ذبح عدد كبير من الطلبة الجزائريين، كان الطفل الصغير "زينو" يرتجف من الخوف وهو قابع في محلّ الحلاقة وسط الزبائن، بعد أن تركه والده وحيداً ينتظر دوزة، يستمع للحلاق وهو يحكي بزهو وافتخار كيف كان يمسك أولئك الطلبة، ويذبحهم الواحد تلو الآخر كأنه يذبح خروفاً، كان الحلاق يقصّ الواقعة دون أن يساوره أدنى إحساس بالندم، وفجأة شعر الطفل "زينو" برغبة شديدة في القيء، بسبب عدم قدرته على احتمال ما سمعه، فخرج مُسرّعاً وأفرغ معدته في الرصيف الموحلّ الحلاقة، ولما عاد والده، أخبره "سي الشريف" بما جرى، فردّ الأب بقوله :

« - إنّه ولد حسّاس جدّاً، يقرأ الكثير من الكتب.

اعتبرت ما قاله والدي على مسمع رواد قاعة الحلاقة إهانة كبيرة لي، فما معنى أن يقول عني أيّ حسّاس، إن لم يكن ذلك سعيًا لإظهاره في صورة ولدٍ ضعيف.»¹²

نجد في وصف الأب ابنه بالولد الحساس جدّاً، وإرجاعه سبب تلك الحساسية المفرطة إلى انكبابه على قراءة الكتب، ما يجعلنا نستنتج أنّ المجتمع الذكوريّ ينظر إلى المثقف على أنّه فاقد للفحولة، إنّه مخصي في نظرهم. ويظهر ذلك أيضًا في قول "نازلي" لـ "زينو"، مُبرّرة أسباب تفضيلها الانفصال عنه، والارتباط برجل آخر: «

كُنْتُ تَقْضِي وَفْتُكَ بَيْنَ الْكُتُبِ بَدَلًا أَنْ تَتَشَيْطَنَ مِثْلَ كُلِّ النَّاسِ (..) كَمْ كُنْتُ أَسْخَرُ مِنْكَ عِنْدَمَا تُحَدِّثُنِي عَنْ الرِّوَايَاتِ وَالْفَلَاسِفَةِ، كُنْتُ أَعْتَبِرُكَ إِنْسَانًا سَادِجًا، لَا شَيْءَ فِيكَ كَانَ يُثْبِرُنِي وَيَدْفَعُنِي لِحُكْمِكَ»¹³

وعليه فإنَّ نظرةَ المجتمع إلى المثقَّف كانت نظرةً دونيَّةً، لأنَّ المجتمع يحتفِي بالعنف، ويجعله سمةً من سماتِ الفحولة، بيدَ أنَّ المثقَّف ينبذُ أيَّ ممارساتٍ تُمَثِّلُ بِصِلَةً إِلَيْهِ، سواءً أكانت ماديَّةً أو معنويَّةً.

3.2 . الفحل المحتكر للدين :

إِخْتَذَ الْبَعْضُ الدِّينَ مَطِيَّةً لِحَقِيقِ فَحُولَتِهِمْ، إِذْ التَّحَقَّقُوا بِالْجَمَاعَاتِ الْمَتَطَرِّفَةِ لِيَعْوِضُوا عَنْ فَشْلِهِمْ فِي تَحْقِيقِ ذَوَاتِهِمْ دَاخِلَ نَسِيحِ الْمَجْتَمَعِ، وَمِنْ أَمْثَلِ ذَلِكَ فِي الرِّوَايَةِ، نَجْدُ " سُلَيْمَانَ اللَّقِيْطِ " الَّذِي أَفْقَى شَبَابُهُ فِي مُعَاقَرَةِ الْخَمْرِ، وَبَيْنَ جِدَارِ السَّجْنِ، وَفَشَلٍ فِي تَكْوِينِ أُسْرَةٍ بَعْدَمَا تَخَلَّتْ عَنْهُ عَشِيْقَتُهُ، رَكِبَ مَوْجَةَ التَّطَرُّفِ فَأَصْبَحَ أَمِيرًا مِنْ أَمْرَاءِ الْجَمَاعَاتِ الْمَتَطَرِّفَةِ، وَلَأَنَّهُ أَصْبَحَ الْأَمْرَ النَّاهِي فِي الْحَيِّ، نَجْدُهُ يُحَاوِلُ إِجْبَارَ الشَّابِّ الْمَثَقَّفِ الْجَامِعِيِّ " زَيْنُو " ، عَلَى أَنْ يَنْضَمَّ إِلَى جَمَاعَتِهِ، وَيُصْبِحَ تَابِعًا لَهُ:

« لَمَّا اقْتَرَبَ مِنْهُ قَالَ:

- وَأَنْتَ يَا سَيِّدَ الْجَامِعِيِّ أَلَا تَلْتَحِقُ بِنَا؟

(..) نَظَرْتُ صَوْبَهُ نَظْرَةَ احْتِقَارٍ، وَمَشَيْتُ فِي طَرِيقِي، فَسَمِعْتُهُ يُضِيفُ مُهَدِّدًا:

- سَتَلْتَحِقُ بِنَا يَوْمًا وَلَوْ بِالْقُوَّةِ، لَحْنُ أَصْحَابِ حَقِّ (..) كُلِّ النَّاسِ سَيَلْتَحِقُونَ بِنَا.¹⁴ »

وَلَأَنَّ الْمَجْتَمَعِ بَشَتْ أَطْيَافَهُ كَانَ مَشْدُودًا إِلَى نَسْقِ الْفَحُولَةِ، فَإِنَّا نُلْفِي " نَازِلِي " مُحَبُّوبَةَ " زَيْنُو " ، تَحَاوِلَ الضَّغْطِ عَلَيْهِ مِنْ أَجْلِ الْإِنْضِمَامِ إِلَى جَمَاعَةِ " سُلَيْمَانَ عَدِيمِ اللَّقْبِ " ، فَالْفَحُولَةُ - فِي نَظَرِهَا - تَتَحَقَّقُ بِالسَّطْوَةِ وَالْعَنْفِ، لَا بِعَالَمِ الْكُتُبِ وَالْأَفْكَارِ:

« أَنْتَ كَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ تُصْبِحَ مِنْهُمْ.

- اسْتَغْرَبْتُ، فَقُلْتُ: مُسْتَحِيلٌ.

- لِمَاذَا؟

- هَؤُلَاءِ النَّاسُ أَفْظَاظٌ لَا يُمَكِّنُ أَنْ أَكُونَ مِنْهُمْ.

- هَؤُلَاءِ النَّاسُ عَلَى صَوَابٍ.

- لَا أَظُنُّ.¹⁵ »

ثُمَّ نَجِدُهُ يُحَاوِلُ تَصْحِيحَ بَعْضِ الْمَفَاهِيمِ الْخَاطِئَةِ الَّتِي تَلَوَّثَتْ بِهَا فِكْرُ حَبِيبَتِهِ، مُنَبِّهًا إِيَّاهَا إِلَى ضَرُورَةِ أَنْ يَتَبَادَلَ النَّاسُ الْمَحَبَّةَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، إِلَّا أَنَّهُا تَرَفُضُ الْفِكْرَةَ بِدَاعِي أَنَّ الْحُبَّ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ خَالِصًا لِلَّهِ، وَأَنَّ الْحُبَّ بَيْنَ الرَّجُلِ

والمرأة حرام، فيقابلها بقوله أن الحب هو قيمة التدفين، لأن الناس بحاجة إليه، وأنه يؤدي إلى دوام الحياة، وهذا يُعطي معنى لوجود الله، وأن الأفعال هي العبادات وليس طقوس الصلاة فقط.¹⁶

وعليه: فقد عبر البطل "زينو" عن انتقاده لنسق الفحولة المتحكم في العلاقات بين الأفراد داخل المجتمع، من خلال موقفه الرافض لشتى أنواع العنف، مهما كان المطلق الفكري أو الأيديولوجي الباعث له، لكن الكلام لم يكن بمقدوره تغيير الأوضاع، لذا كان لزاما عليه اللجوء إلى الفعل، والسعي إلى إزاحة نسق الفحولة المتسبب في العنف المستشري، خاصة وأنه كان المتضرر الأكبر باعتباره مُتَقَفًا في بيئة لا تؤمن بالأفكار، ولا بالمثُل، وإنما تنقاد للأقوى، ما جعله يعيش مأساة حقيقية، عبر عنها بقوله: «لقد استغللت نازلي مثاليتي، ورهافة عواطفني، لكي تُمارس عليّ ساديتها وعنفها النسوي، متلذذة بذلك، مُتَفَنَّة، تاركةً مأساتي تدوم وقتنا أطول.»¹⁷

3 إنتاج النسق البديل: من سادية الفحل، إلى إنسانية المثقف:

1.3 تَفْحُلُ المَثَقَف :

أبدى البطل "زينو" نُفُورَهُ من العنف في مواقف عديدة، باعتباره نموذجاً للشباب المثقف، الذي تسربت إليه المشاعر النبيلة كالرقة والرّهافة نتيجة إنكبابه على قراءة الكتب، وفهمه الصحيح لتعاليم الدين الإسلامي السمحة، غير أن معاناته في مجتمع ذكوري يُمَجِّد فيه الرجال العنف، وتشتيه النساء وتتلذذن به، ونظرتهم الدونية إلى المثقف، كل هذا أجبره على الدفاع عن حقه في الوجود، وعن صحة موقفه، فلم يكن أمامه خيار سوى القضاء على ذلك الإنسان الحساس الذي كانه، كي يتمكن من العيش مثل كل الناس، ثم حمل السلاح لمحاربة المتطرفين الذين أصبحوا أوصياء على الدين، يُعَبِّرُ عن ذلك بقوله: «يُحَسُّ الإنسان أحياناً أنه يجب أن يُصْبَحَ ذنباً (..) حتى لا يقع تحت رحمة سادية تُمارس عليه.»¹⁸

وهذا التغير النفسي كان لزاماً أن يُصاحبه تغير فيزيولوجي، حيث بدأ يفقد حساسيته تدريجياً، وتغيرت ملامح وجهه، لأنه ترك شنبه ينمو، وعيناه أصبحتا توجيان بالقسوة بعدما كانت تُشعُ منهما نظرات ملائكية، فقد تعمّد "زينو" استبدال ذلك الوجه الملائكي، بوجه قاسي يُكِنُّه من العيش وسط مَنْ كان يُسمّيهم بالغربان، ولأن هذا التغير النفسي وما رافقه من ملامح جديدة، هو تغير ظريفي، أشبه بالقناع الذي يرتديه المرء بهدف عبور مرحلة يرغب في اجتيازها، لذلك ثلّفيته واثقاً من ضرورة الحفاظ على نقاوة الروح، وأن لا تتأثر دواخله بقناع الرجل الفظ الذي يرتديه، كما يظهر في قوله: «لكن هذا لا يعني أنني بلغت درجة البربرية، بالعكس فقد عرفت كيف أحتفظ بحد أدنى من الإنسانية في قلبي (..) لأنني بقيت أحتفظ بعلاقتي مع الكتب.»¹⁹

لقد أسهم فعل القراءة الذي كان البطل "زينو" مُواظباً عليه، في الحفاظ على ذاته الأولى، وكان له بالغ الأثر في تحصينه من الوقوع في الزلل الذي وقع فيه "سليمان عديم اللب"، ذلك أنهما يشتركان في أمور عديدة، فكلاهما نشأ في نفس البيئة، وتعرض لقساوة الظروف المعيشية، والعنف الأسري، زيادةً على كون كل منهما تخلت عنه حبيبته، وفصلت الارتباط برجل آخر.

لكنّ "سليمان" اختار التعويضَ عما فقدَهُ بالانتقام من المجتمع، لذلك التحق بالجماعات المتطرفة وصار أميراً على أفرادها، يتلذّد بتسليط العُنفِ على الناس، يُغذّيه الجهل وشمعة انعدام اللّقب الملتصّحة بعارٍ أم غُذِرَتْ في شرفها. أمّا "زينو" فلم يكن يسعى إلى الانتقام من المجتمع الذي بحسّه حقّه، ولم يكن يرجو التعويضَ عن حبّ فقدَهُ، بل كان مُحْتَمّاً عليه اللّجوءُ إلى العنفِ دُرّاً للعنف، أيّ أنّه صاحبُ هدفٍ إنسانيّ نبيلٍ صادرٍ عن وجهةٍ نظرٍ نابعةٍ من ذاتٍ عليمَةٍ، أيقنَتْ أنّ لا سبيلَ للدّفاع عن الحقّ في الوجود، وعن المستضعفين، والرأي الآخر، إلّا بوضع حدٍّ للجماعات المتطرفة التي احتكرت الدّينَ، وألغت كلّ مُخالفٍ في الفكر. يظهر ذلك في قوله:

« - هل أنا قاتِلٌ فعلاً؟ »

- طبعاً، لستُ قاتِلاً، كنتُ أدافع عن نفسي .. عن الناس الشّرفاء، دافعتُ عن حقّي وحقّهم في الوجود (...). قتلتُ لأقضي على من يريد كتم صوتِ الإله، قتلتُ بدافع الإيمان، وليغفر لي الإله رغم كلّ شيء..»

20

لقد أدرك "زينو" أنّ هذا الوضع الجديد الذي انتقل إليه، والحالة التي آلت إليها ذاته، غيرُ دائمين، وأنّ العودة إلى ذاته الأولى مرهونةٌ بتصحيح وضع خاطئ، احتلّ فيه الجهلُ السّاديّون المركز، بينما همّش فيه المثقّفون.

2.3 المثقّف من الهامش إلى المركز :

بعد عشرِ سنواتٍ قضّاها "زينو" وأمثاله ممّن اختاروا الوقوف إلى جانب دولتهم، ومقاومة الجماعات المسلّحة، لاحت أماراتُ النّصر، ولم يبقَ أمام المتطرفين من خيارٍ سوى الامتثال لقوانين المصالحة التي وضعتها الدّولة أو الموت، خصوصاً في ظلّ إبداء الشّعب قابليّةً للتعايش مع التّائبين الرّاغبين في وضع السّلاح، كما يظهر في هذا الحوار بين "زينو" وأحد المقاومين:

« يقولون أنّ الكابوسَ انتهى.

نظرتُ إليه مُبتسماً، أجبته:

- نعم.

- وماذا سيكون مصيرُ جماعة سليمان عديم اللّقب؟

- ربّما سيُعودون إلى الحياة بيننا. »²¹

تلك السنوات الدّمويّة كانت كافيّةً لبعض من عايشوا الأزمة عن قُربٍ لتصحيح مواقفهم، وإعادة النّظر في مفاهيم تتعلّق بالرجولة، كما نجده في قول "نازلي" : « اكتشفتُ لاحقاً أنّي كنتُ أتصرفُ مثل المرأة السّاذجة، التي تنظرُ إلى الرّجل من زاوية القوّة، قوّة الجسد والفعل، لم تكن أنت تملك لا القوّة ولا المال. »

22

ف "نازلي" التي اختارت الارتباط برجلٍ آخر يملك - في نظرها - مواصفات الفحل، المتمثلة في القوّة والمال، وتركت حبيبها "زينو" غارقاً في مأساته، لاعتباراتٍ عدّة أهمّها أنّه شابٌ حسّاسٌ ينبذ العنف، ويميل إلى القراءة،

هاهي تجد نفسها ماثلة أمامه خلف مكتب تولى فيه التحقيق الأمني مع زوجات المتطرفين اللواتي قبض عليهن المقاومون خلال مدهمة مغارات في الجبال، لقد كانت تعتقد أنها ظفرت بزواج مثالي، وأن حياتها معه ستستمر بالهناء، غير أن تشبّع الزوج بالأفكار المتطرفة، دفعه إلى المشاركة في عمليات اغتيال لشخصيات مؤالية للسلطة، وحدث أن اكتشف أمره، فوجد نفسه مضطراً إلى الهروب والالتحاق بالجبل، وبعد مدة لحقت به زوجته، وهناك اكتشفت زيف الفكر المتطرف، وأنها وقعت ضحية سذاجتها وفكرها المحدود الذي حصر مفهوم الفحولة في القوة والمال.

إن اعتراف "نازلي" - وأمثالها ممن غرر بهم - بلا جدوى العنف، وبقيمة المعرفة والعلم ودورها في تحسين المرء من الانسياق وراء الدعوات المضللة، من شأنه أن يزيح الفحل / العنيف (المتطرف) إلى الهامش، ويُعيد المثقف إلى المركز، وهو الأصل وما يجب أن يكون عليه الحال. لأن المثقف سليم الفطرة، إنساني في علاقاته مع الآخرين، ينبذ العنف ولا يلجأ إليه إلا إذا تحتم الأمر، يظهر ذلك في تبرير "زينو" حمله للسلاح بقوله: «فرض علي ذلك، وكان لزاماً علي لأضمن وجودي، وأتمكن من البقاء.»²³ أما الجاهل فإن التطرف عنده غاية، لأنه يتلذذ بتعنيف الآخرين، هذا ما جعل "زينو" يصفهم بقوله: «جماعة عديم القلب، فقدت صلتها بالإنسانية.»²⁴

3.3. إنسانية المثقف بديلاً لسيادية الفحل :

« - انتهى كل شيء الآن، خسروا الحرب، وانتصروا. »²⁵

بهذه العبارة خاطب "زينو" أحد رفاقه المقاومين الذين اختاروا التحدق مع دولتهم في حربها ضد المتطرفين، انخرط فيها "زينو" لتصحيح وضع يتمثل في إعادة المثقف إلى مكانته الطبيعية، بعد أن تمت إزاحته إلى هامش المجتمع، أثناء عشرية دموية تصدر فيها العنف المشهد، وصار سمة فارقة تتحدد من خلالها معايير الفحولة في مجتمع تشكلت أنساقه الثقافية من منظومة أفكار خاطئة.

ولأن ذلك التغير الذي طال شخصية "زينو" كان ظرفياً، إذ تحتم عليه وضع بعض قناعاته جانباً، إلى حين الانتهاء من حوض معركته الوجودية، واجتياز تلك المرحلة المظلمة التي احتكر فيها الجهلة الدين، ومارسوا ساديتهم على الناس، فإنه بمجرد انتهاء الحرب، نلفيه يحاول استعادة ذاته الأولى: «كنت أريد أن أعود لذاتي، إلى ذلك الإنسان الحساس الذي كنته قبل أن تتحول البلاد إلى ما أصبحت عليه، بؤرة للموت، لذلك رفضت ترك السلاح معي.»²⁶

إذا كان التخلص من السلاح بإعادته إلى السلطات الأمنية أول إجراء قام به بطل الرواية بمجرد انتهاء الحرب، فإننا نجد أنه يتبع ذلك بالذهاب إلى الحمام بغية الاغتسال، وكأنه يرغب في تخليص جسده من أدران العشرية، خصوصاً إذا ما علمنا أنه لم يزره طيلة تلك الفترة المأزومة، وقبل أن يُعادر اتخذ قراراً لا يقل أهمية عن التخلص من السلاح، حيث قام بحلق شنبه الذي تركه ينمو حينما انضم إلى المقاومين: «وضعت أصابعي على شاري المبلل،

وفجأة قررتُ حلقة، فعلتُ ذلك بكثير من اللذة (..) عادت ملامح وجهي الطفولية، برزت البراءة مجدداً.»

27

وبالعودة إلى الموروث الثقافي العربي - خاصة في المجتمعات البدوية - ، نجد أن حمل السلاح والشنب الكبير يُجسّدان صورة الرجل الحقيقي - أو الفحل - في الميثال الجمعي، لذا يُمكن أن نعتبر الموقف الذي اتخذهُ البطلُ منهما هدماً لمُوروثٍ فكريٍّ سائدٍ، وتجاوزاً لنسقٍ ثقافيٍّ مُهيمنٍ، تحكّم في العلاقات داخل نسيج المجتمع، سواء تلك التي تربط الأفراد فيما بينهم، أو التي تجمع المواطن بالنظام الحاكم، نسقٌ مسؤولٌ - في نظر الكاتب - عن إنتاج عشيرةٍ دمويةٍ، لأنّه روج لفكرة أن العنف هو السبيل الوحيد لإثبات الذات: « رأيتُ الناسَ حولي يتغيرون (..) العنفُ أصبحَ سلوكاً يُميّزُهُم، أصبحوا يعتقدون أن العنف هو الوحيد القادر على إعطائهم مكانةً بين الناس، الكل أصبح يُمارسُ العنف الذي يقدرُ عليه، كلٌّ حسب مكانته، إننا في وضعيةٍ مُحيفة. »²⁸

وهدمُ النسق المهيمن يقتضي بالضرورة إنتاجَ نسقٍ بديلٍ، لذا تُلفي الكاتبُ يؤسّسُ لنسقٍ آخر، يتشكّل من خلال المعرفة المستقاة من فعل القراءة، يُحمّلُ لواءهُ المثقف الحقيقي الذي ينبذ العنف ويرى في رقة الإنسان ولُيُونته قوّة لا ضِعفاً، يتقبّل الآخر، ويؤمن بأن الاختلاف من نوااميس الحياة، فالمثقف إنساني بطبعه، يُحب أن يُعم الخير جميع الناس، يظهر ذلك في الحلم الذي رآه " زينو " في الليلة التي نام فيها في غرفة طفولته، بين أحضان أمّه، واستعاد فيها ذاته الأولى، بعد عشر سنواتٍ مُضيّةٍ قضّاها في مقاومة المتطرفين: « نمتُ نوماً خالياً من الكوابيس، ورأيتُ في حلمٍ جميل أن الناسَ جميعاً تصالحوا فيما بينهم، لا أحدٌ يخفدُ على الآخر، يجلسون عند مدخل الحيّ في جماعةٍ واحدةٍ، يتحدثون في أمور الحياة، وكانت لهم آراءٌ مختلفة، كانوا هادئين، طيبين وصبورين، ومُتسامحين فيما بينهم، ولما أذن المؤذن للصلاة، نهض بعضهم وقصدَ المسجدَ للفلاح، وآخرون ظلّوا جالسين تحت شجرة التوت، يُحدّقون في السماء الصافية، وينتظرون هدايةَ الإله لدخول المسجد والصلاة (..) ولما عاد المصلّون جلسوا في أماكنهم، واسترسلوا في الحديث مجدداً بالهدوء ذاته، والتسامح ذاته، وفي الحلم دائماً سمعتُ أحدهم يقول: لو نَبَقى على هذه الحال، سنموت سعداء، وسندخل الجنة حتماً. »²⁹

4. خاتمة:

- عبّر الروائيون الجزائريون مطلع الألفية الجديدة، عن هوسهم بتجاوز الأنساق الثقافية المهيمنة، خصوصاً بعد اعتبار بعضها مسؤولة عن إدخال البلاد في دوامةٍ عُنفٍ، دامت عقداً من الزمن.

- أثبتت الروائي أن نسق الفحولة الموجه لتفكير العربي منذ القدم، هو المتحكّم في العلاقات داخل المجتمع الجزائري، والمسؤول عن إنتاج الاستبداد السياسي وما ينجرّ عنه من تطرفٍ ديني.

- كما فسّر نظرة المجتمع إلى المثقف - وهي نظرةً دونيةً -، بموقف المثقف الرافض للعنف، في بيئةٍ تحفّي به وتعتبره معياراً من معايير الفحولة.

- تمكّن بطل الرواية خلال تلك المعركة الوجودية التي خاضها، من إزاحة الفحل / (المتطرف) إلى الهامش، وإعادة المثقف إلى المركز، وهو الأصل وما يجب أن يكون عليه الحال.

- لم يكتفِ الروائي بالدعوة إلى تجاوز النسق الثقافي المهيمن، بل سعى إلى إنتاج آخر بديل رآه كفيلا بانبعث الجماعة، وهو نسق يتشكّل من خلال المعرفة المستقاة من فعل القراءة، يحمل لواء المثقف الحقيقي الذي ينبذ العنف، ويؤمن بأحقية الآخر في الاختلاف.

5- الهوامش:

¹ - معجب الزهراني، نظرية جديدة أم إنجاز في سياق مشروع متجدد، دراسات (عبد الله الغدامي والممارسة النقدية والثقافية)، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، بيروت، 2003، ص 139

² - حفناوي بعلي، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، الدار العربية للعلوم والنشر، الجزائر، 2017، ص 8

³ - عبد العزيز حمودة، الخروج من التيه، دراسة في سلطة النص، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2004، ص 270

⁴ - عبد الله الغدامي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المملكة المغربية، ط3، 2005، ص 269

⁵ - حميد عبد القادر، مرايا الخوف (رواية)، منشورات الشهاب، الجزائر، 2007، ص 21

⁶ - حميد عبد القادر، مرايا الخوف، مصدر سابق، ص 29 - 30 - 31

⁷ - م ن، ص 157

⁸ - كلثوم بن عبد الرحمان، السلطات والآليات الرمزية عند بيار بورديو، رسالة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية قسم الفلسفة، جامعة الحاج لخضر، باتنة 1، 2019 - 2020م، ص 115

⁹ - تعيدنا كلمة إخفاء نوعاً ما لذهنيات قديمة كانت تمثلها طقوس الإخفاء، الممارسة في أعياد " عشتار " السنوية بأرض بلاد ما بين النهرين، حيث كان يتوجّه بعض الشباب إلى مكان مخصّص، فيه شؤف مغروسة، فيستلونها ويخصّون أنفسهم بأيديهم، ثم يركض أحدهم في شوارع المدينة، حاملاً أجزاء المفصلة في قبضته، ويبرميها أمام أحد البيوت، فيستوجب على صاحب الدار أن يدخله، ويعتني به، ويُقدّم له ثوباً نسائياً يلبسه ببقية حياته.

يُنظر : فراس السّواح: لغز عشتار الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، دمشق، دار علاء الدين، ط7، 2000 ص 235-236 .

¹⁰ - حميد عبد القادر، مرايا الخوف، مصدر سابق، ص 29 - 30 - 31

¹¹ - عملية استخباراتية فرنسية، تم فيها إيهام العقيد " عميروش " بأن عناصر من ضباطه وجنوده - وخاصة المثقفين والطلبة الذين التحقوا بالولاية الثالثة بعد إضراب الطلبة عام 1956 - هم عملاء على اتصال وثيق بالجيش الفرنسي، الأمر الذي أدى بـ " عميروش " إلى الإسراع - دون تحرّ أو تعمق - في إقامة محاكمات صورية استعجالية، كانت نتيجتها الحكم بالإعدام على أكثر من 1800 من جنوده، أغلبهم من المثقفين

- يُنظر: علي كافي: من المناضل السياسي إلى القائد العسكري 1946-1964، دار القصة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1990، ص 123 -

124

¹² - حميد عبد القادر، مرايا الخوف، مصدر سابق، ص 111 - 112 - 114

¹³ - م ن، ص 154-155.

¹⁴ - م ن، ص 55 - 60 - 62 - 63

¹⁵ - م ن، ص 34-35

¹⁶ - م ن، ص 34-35

¹⁷ - م ن، ص 33

¹⁸ - م ن، ص 141 - 142

¹⁹ - م ن، ص 141 - 142

²⁰ - م ن، ص 182-183.

²¹ - م ن، مصدر سابق، ص 143

²² - م ن، مصدر سابق، ص 155

²³ - م ن، ص 141

²⁴ - م ن، ص 141

²⁵ - م ن، ص 145

²⁶ - م ن، ص 181-182.

²⁷ - م ن، ص 181-182.

²⁸ - م ن، ص 146

²⁹ - م ن، ص 187 - 188

6. قائمة المراجع:

- معجب الزهراني، نظرية جديدة أم إنجاز في سياق مشروع متجدد، دراسات (عبد الله الغدامي والممارسة النقدية والثقافية)، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، بيروت، 2003
- حفناوي بعلي، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، الدار العربية للعلوم والنشر، الجزائر، 2017
- عبد العزيز حمودة، الخروج من التيه، دراسة في سلطة النص، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2004
- عبد الله الغدامي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المملكة المغربية، ط3، 2005
- فراس السواح: لغز عشتار الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، دمشق، دار علاء الدين، ط7، 2000
- علي كافي: من المناضل السياسي إلى القائد العسكري 1946-1964، دار القصة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1990
- كلثوم بن عبد الرحمان، السلطات والآليات الرمزية عند بيار بورديو، رسالة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية قسم الفلسفة، جامعة الحاج لخضر، باتنة 1، 2019 - 2020م